الفصل الأول

أندرو تيلور ستل (STILL ANDREW TAYLOR)

(١٨٢٨-١٩١٧م)

إنّ بدايـات طـب المعالجة بتقويم العظام ما زالت غير معروفة بشـكل دقيق. في الواقع، نحن لا نعرف إلا القليل عن الأسـباب التي دفعت واضـع طـب المعالجـة بتقويم العظام الدكتـور/ أندرو تيلور للتأكيـد أن اختلالات المفاصـل والجهاز العضـلي الهيكلي للجسـم تسـبّب في كثير مـن الأحيان الأعراضـ أو الأمراضـ للإنسـان، وتحتاج من ثَـمَّ إلى عمليـات علاجيّة يدويّة لتصحيحها. ويتبيّن من قراءة اثنين من أهم كتبه التي ألفها في وقت متأخر من حياته أن هنالك كثيراً من النقاط الغامضـة « سـيرته الذاتية» و كتابـه المعنـون «طب المعالجـة بتقويم العظـام: البحوث والممارسـات».

و يعترف د. تيلور في مقدمة سـيرته الذاتية أنّ هنالك كثيراً من أوجه القصـور والعيوب التي تضـمنّها الكتاب، وذلك مردّه إلى أنه كَتَبَ سـيرته الذاتيـةّ بنفسـه دون الاسـتعانة بأحد كاتبي السـير الذاتيـة. ورغم ذلك، تبقى الحقيقة السـاطعة أن هذا الطبيب تمكّن تدريجيّاً من اكتساب سمعة باهرة بفضل بصـيرته الثاقبة، ونظرته الاستشراقيّة الدينيّة، وشخصيته المتميّزة، وقناعته في سلامة منهجه، وعِظَم النتائج العلاجيّة التي حقّقها، وذلـك على الرغم من الوسـط السـلبي، بل العدائي الـذي كان يعمل فيه. كما تمكّن من تشـجيع مهنة طب المعالجة بتقويم العظام، ووضـع الأسـس المناسبة من أجل إنشاء طريقة علاجيّة فاعلة تظلّ متطوّرة على مرّ السنين.

إن التعرف إلى شخصـيّة أندرو تيلور سـتل من خلال سيرة حياته يُعدُّ ضرورياً في بداية هذا الكتاب.



د. اندرو تيلور ستل في إحدى محاضراته

السيرة الذاتية للدكتور/ أندرو تيلور ستل

(تم نُسخت بموافقة الأكاديمية الأمريكية لطب المعالجة بتقويم العظام)

أولاً- طفـــولته :

ولـد د. أنـدرو تيلـور سـتل في ٦ أبريـل من عـام ١٨٢٨م في مدينة جونزفيـل Jonesville ، بولاية فرجينيا الأمريكيـة. عند ولادته، كان والده أبرهـام يعمـل بالزراعة في مزرعته الخاصـة ويمارس مهنـة الطب، وكان قبلها واعظاً دينيّاً. خَلَفَت والدة تيلور «مارثا» (Martha) زوجها في مهمته الدينيّـة. وفي عـام ١٨٣٤م، باع والده مزرعته الخاصّـة واسـتأنف مهمّته الدينيّة، حيث انتقل مع عائلته إلى نيوماركت بولاية تينيسي Tennessee حيث اسـتقرّ بـه الحال فيها. لذلك، كان والده يتغيّـب عن المنزل في بعض الأحيان لعدّة أسـابيع من أجل التفرغ للعمـل الدعوي بين القاطنين الجُدد في غـرب الولايـات المتَّحدة. ثم انتقل منهـا في ١٨٣٧م إلـى مدينة ماكون Macon التي تقع في شـمال ولاية ميسوري، ثم رحل عنها بعد بضع سنوات إلى مقاطعة شـويلر Schuyler. وفي عام ١٨٥١م، أرسل إلى ولاية كانساس في مهمة دعوية بين سكانها من هنود الشاوني Chawnees .

وغنــيٌّ عن البيــان أنّ التّرحال المتتالي لهذه الأســرة قد أثّر ســلباً في المراحــل التعليمية لأندرو ســتل في طفولته وشــبابه. لقــد احتفظ أندرو في ذاكرتــه مــن معلّمه الأول، الســيد فاندربــرج (Vanderburgh) بصــورة رجل حازم، يلجأ بســهولة لاستخدام العصــا لمعاقبة طلّابه. أمّا مِنْ معلّمه الثاني، الســيد سافيل (Saffell)، فقد ترسّخت في ذهنه صورة رجل واسع الثقافــة ومنظّــم في عمله. وفي المُــدّة من ١٨٤٢م إلــى ١٨٤٨م، تلقّى أندرو تعليماً انتقائيّاً، ورافقَ في بعض الأحيانَ والده في رحلاته الدعويّة، وعمل في الزراعة لمســاعدة الأسرة في المزرعة، ومارس الصيد، وشارك في فعاليات جوقة الأناشيد الدينيّة، وخلافه.

ثانياً – الدخــول في الحياة الاجتماعية :

في ينايــر ١٨٤٩م، تــزوج أنــدرو مــن الســيدة مــاري فــوت (Mary Vaugh) واســتقرّ بــه الحال في مزرعته الخاصــة التي تقــع على بعد ميل واحد من منزل الأسرة، وفي شهر يوليو من العام نفسه، نزلت بهم عاصفة برْد هوجــاء ألحقت الدمار والخراب بمحصــوله وبدّدت جميــع آماله، ما دفعــه للعمل بالتدريس لكســب قــوت يومه. وفي مايــو ١٨٥٣م، قرر اللحاق بوالديــه في مقر بعثتهما بواكاروســا Wakarusa، وهنالك قرر تعلّم الطب تحت إشراف والده.

وفي عام ١٨٥٧م، دخل أندرو معترك السياســة، وانتُخب نائباً برلمانيّاً قبــل ثلاث ســنوات من نشــوب الحــرب الأهليــة الانفصــالية في الولايات المتحدة. وفي سبتمبر عام ١٨٥٩م، توفّيت زوجته التي تركته وحده مع ثلاثة أطفال صغار. أنهى أندرو مدّة ترمله في ٢٠ نوفمبر من عام ١٨٦٠م عندما تزوج من الســيدة مــاري تيرنير (Marie Turner) التــي أنجبت له عدداً آخر من الأطفال.

ثالثاً- الحرب الأهلية الانفصالية :

لم يتردّد أندرو تيلور بإعلان تأييده ومناصرته لأهل الشمال في مطلع سبتمبر ١٨٦١م، ثم انخرط في الحرب الأهليّة، والتحق بالفرقة التاسعة لفرسان كنساس Kansas المنوط بها مسؤولية التزويد باللوازم الطبيّة. وفي أبريل ١٨٦٢م، كوّن فرقته الخاصة، وعُيِّن قائداً لها، ثم التحق بعد ذلك بالفرقة ٢١ من ميليشيا ولاية كنساس طبيباً برتبة رائد. وفي عام ١٨٦٤م، تقول الروايات إنه نجا بأعجوبة من رصاصتين أطلقهما العدو خلال أحد الاشتباكات، وبعد مدّة وجيزة من تاريخ ٢٧ أكتوبر، تلقّى الأمر بحلّ فرقته العسكريّة والعودة إلى منزله.

رابعاً- الدخول في مهنة الطب :

التحق أندرو بكلية الجراحين والممارسين للطب بمدينة كنساس سيتي «يتعلم فيها المواد التي كانت تُدرَّس في كليات الطب آنذاك ». ثم انتقل إلى مدينة بالدوين Baldwin ليعمل طبيباً ألوباثيّاً حيث اكتسب سمعة جيدة، وكرّس بالفعل كثيراً من وقته لمزيد من الدراسة في مجال التشريح، حيث عكف على تشريح جثث الهنود ليلاً. وكان يُعِدُ بأن « الدراسة المثالية للجنس البشري هي التي تعنى بدراسة الإنسان في ذاته». ويبدو أنه بدأ يشك بالفعل في مقدرة الطب الألوباتي منذ ذلك الوقت، ولا سيما أنه كان قد فقد ثلاثة من أطفاله أثناء تفشّي مرض التهاب السحايا النخاعي (الحمّى الشوكيّة) على الرغم من كل الرعاية الطبيّة الفائقة التي حظي بها أطفاله من قبل زملائه الأطباء. وفي الوقت نفسه، كان أندرو يباشر عملية استثمار مزرعته الخاصة، وتمكّن من اختراع آلتين زراعيّتين: إحداهما للحصاد والثانية لخضّ الحليب وفرز القشدة، وذلك لتسهيل العمل في المزرعة.

خامساً - في ٢٢ يونيو ١٨٧٤م :

يُعدُّ هذا التاريخ يوم ميلاد طبّ المعالجة بتقويم العظام، حيث صرَّح أندرو قائلاً: « أودّ أن أرفع راية طب المعالجة بتقويم العظام مثل شعاع الشمس بإعلان أن الرَّب هو الخالق، وأنه قد أودع في جسم الإنسان أجهزة مُحْكمة».

سادساً – الخطوات الأولى نحو طب المعالجة بتقويم العظام :

بدأ أندرو ستل يتوسّع بشغف في دراسة علم التشريح البشري من منظور آليّ حيويّ ووظائفيّ (فسيولوجي) من خلال دراسة الجهاز العظمي المفصلي، والعضلي، والأربطة، وجهاز الأوعية الدمويّة، والجهاز العصبي، في محاولة منه لفهم كيفيّة عمل هذه الأجهزة بشكل متكامل. وبحلول خريف عام ١٨٧٤م، بدأ ستل في اختبار منهجه العلمي، وذلك بتطبيقه على التأثيرات الناجمة عن الظروف الموسميّة. وذات يوم بينما كان يسير برفقة صديق له يدعى العقيد ايدرمان (Ederman) في أحد شوارع مدينة ماكون في ولاية ميسوري، لفت انتباهه نقاط دم جديدة تتساقط على الأرض، يبدو أنها تأتي من مجموعة مكونة من أمّ برفقة طفلين أو ثلاثة يسيرون أمامهما في الاتجاه نفسه، وعندما أدركاهم، اكتشفا أنّ الأمّ كانت تحمل صبيًّا يبلغ من العمر حوالي أربع سنوات، وكانت ساقاه ملطختين بالدَّم. أخذتهما الشفقة عليهم ولا سيما عندما أدركا أنهم من أسرة فقيرة، فقدّم ستل وصديقه يد العون للأسرة واصطحباهما إلى منزله. وعندما وضع ستل الطفل بين ذراعيه، وجد أنّ المنطقة القطنيّة ساخنة، بل شديدة الحرارة بينما كانت البطن باردة، وأن الجزء الخلفي من رقبته ساخن بينما مؤخرة رأسه باردة، كما أن جبهته كانت ساخنة في حين أن الجزء الأمامي من رقبته بارد. كما وجد أن بعض الأجزاء

مسترخية، بينما أجزاء أخرى مشدودة، وبالرغم من أن ستل كان يجهل نوع الحمى الشديدة التي أصابت الطفل، إلاّ أنّه فكر في الجهاز العصبي، وشرع يضغط على جسم الطفل ويدلكه بغية نقل الحرارة إلى الأجزاء الباردة منه. استمر ستل على هذه الطريقة لعدة دقائق، ثم طلب من الأم العودة في الغد لطمأنته عن حالة الطفل الصحية، وفي اليوم التالي تحسّنت حالة الطفل كثيراً. كان لهذا النجاح صدى كبير في نفسه، وسرعان ما بدأ في معالجة كثير من أنواع الحمّيّات بهذه الطريقة غير مكترث لوضعه كداعية إصلاحي، وكان يتصوّر أنهّ يتعامل مع المرض كما يتعامل مع رجل «كافر، ضال وأحمق» يسعى لهدايته. وبعد مضي بعض الوقت من ذلك، أدَّت معجزة شفاء فتاة من حالة مرضيّة أعلن الأطباء أنّها مستعصية الشفاء إلى تعزيز قناعته بسلامة منهجه، فقد دعاه والد البنت المريضة لمعاينتها وهي طريحة الفراش، فدهش لرؤية الوضع المائل لرأس البنت على الوسادة والوضع البارز للخلف للفقرة العنقية الأولى (الأطلس). استطاع ستل تعديل رقبة البنت بعناية، ولم تمض إلا أربع ساعات فقط حتى وقفت المريضة الشابة على قدميها.

غادر ستل ماكون إلى مدينة كانساس سيتي Kansas city، ثم استقر به الحال في يونيو ١٨٧٥م في مدينة كيركسفيل Kirksville. ومضى كل شيء على ما يرام بالنسبة له حتى ألّمت به في خريف عام ١٨٧٥م حمّى التيفوئيد الشديدة التي استمرت معه حتى يونيو ١٨٧٦م، وتركته ضعيفاً، غير قادر على العمل طوال ساعات الدوام، وأفقرته ماليّاً. بعد ذلك، قرّر ستل استئناف ممارسة مهنته الطبية منتقلاً من مدينة إلى أخرى. وعندما لاحظ الازدياد المطرد في عدد المرضى الراغبين في العلاج، قرّر ستل في أواخر الثمانينيّات(١٨٨٠م) الإقامة الدائمة في مدينة كيركسفيل بمقاطعة أدير التابعة لولاية ميسوري. لخّص ستل كل تلك السنوات الماضية كما يلي، «كنت أعمل وحيداً في بحوثي حتى عام ١٨٩٢م تقريباً، باستثناء المساعدة التي كان أبنائي الأربعة قادرين على تقديمها لي. وكنت

أجتهد قدر المستطاع في معالجة جميع أنواع الأمراض، و سمعت كثيراً من عبارات الإطراء والتوبيخ، منها ما هو مؤيدّ لأسلوب العلاج الجديد، ومنها مـا هو منتقد له. ولكني انكببت على عملي غـير آبه بتلك التعليقات، وأتت النتائـج تفوق بكثـير كل أحلامي وطموحاتي» (من السـيرة الذاتية لأندرو تيلور ستل، ١٩٠٨م).

سابعاً – إنشـاء المدرسة الأمريكية لتقويم العظام :

وفي العاشـر من مايو ١٨٩٢م، أسس سـتل أول مدرسة متخصصة في طب المعالجة بتقويم العظام التي عُرفت باسـم المدرسـة الأمريكية لتقويم العظام. وهي المدرسـة التي وضـع نظامها الأساسـي وفقاً للقانون السائد في ولاية ميسـوري والخاص بالمؤسسات العلمية. وكان يبلغ من العمر وقتئذٍ ٦٤ عاماً.

ثامناً- نهـاية حياة ستل :

اسـتمر «الطبيب الهزم» في ممارسة الطب، لكنه كان يخصّص معظم وقته لتقديم محاضرات عامة، وتدريس طب المعالجة بتقويم العظام بقصد نقل تجربته الشخصية و لا سيما قناعته بسلامة منهجه العلاجي لطلابه، وقد سـعى سـتل جاهداً لتفادي الانتقادات التي وَجِّهت له، خاصّة من قِبَل المؤسّسة الطبيّة القائمة آنذاك، وعمل بجد واجتهاد على تطوير طب تقويم العظام «الغالي على نفسه» وفي عام ١٩١٥م، انتقد ستل بشدَّة إدخال تعليم بعض المواد الطبية التي نادى بها بعض طلّابه في البرنامج الدراسي، وذلك قبل بضـعة أشهر من إصـابته بنوبة دماغية أودت بحياته في عام ١٩١٧م، عن عمر ناهز التسـعين (٨٩ سـنة) . كانت هذه هي الحياة المدهشـة التي عاشـها أندرو تيلور سـتل، وتظل كثير من المعلومات الخاصـة بحياته غائبًا عنـا ، ولذلـك، نحن لا نعـرف إلا القليل عن الظروف التـي دفعته إلى تعلم «التجبير» حتى أصبح «المجبّر المتألق»، كما كان يحلو له أن يصف نفسه.